الجزء الثالث المجلد التاسع والأربعون

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

جمادى الآخرة ١٣٩٤ هـ تموز « يوليو » ١٩٧٤ م

آفاق البحتري

الأستاذ شفيق جبري

تعوّدت أن أنصرف من حين إلى آخر عن ألم الحقيقة إلى لذّة الخيال ، تعوّدت أن أرجع إلى ديوانٍ من دواوين العرب هرباً من وحشة الدنيا إلى أنسها ، حتى تستريح الأذن بعد أن ملأ العالم التهديد بالصواريخ ، وما يفضي إليه هذا التهديد من فناء العالم ، فكأن الدنيا لم تخلق إلا للويلات ، وكأن الأرض لم تمتدّ مذاهبها إلا لتنبسط فيها آثار الخراب .

كان نصيبي هذه المرّة الرجوع إلى ديوان البحتري ، لقد عشت أياماً قلائل مع شاعر انفرد في حياته وشعره بأمور يضيق هذا المقال عن تفصيلها ، عشت مع البحتري أياماً قلائل نعمت في خلالها بعبقرية خالدةٍ على

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجه الدهر ، لقد ضحكت الحياة في شعره فلم نر في أضعافه رسماً من رسوم عبوسها وتجهّمها ، ضحكت في كل شيء ، في الطبيعة والحضارة والحب ، والتغني بالوطن والافتخار بالعرب .

لقد تغنى البحتري بكل منظرٍ من مناظر الطبيعة على نحو ما ذكرته في مقال متقدم ، تغنى بالربيع وهو ينمنم وشي حلّتها الخضراء ، وبالخريف وهو ينسج لها حلّتها الصفراء ، واستوفت عينه حظها من رباها وقد صبغها الليل بلونه الأسود ، ومن آفاقها وقد اختضبت بالصباح الورد ، وتملّت أذنه قسمها من هديل حمامها ، وحفيف ورقها ، وضجيج بحرها ، وزجل رعدها ، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها ووردها وآسها وأقحوانها ، لقد ملأ نفسه من كل جزء من أجزاء الطبيعة ، من ذهب شمسها ، وفضّة مائها ، واندفاق غيثها ، في غداةٍ مخضلّةٍ أو عشيّ مبتلّ .

إنّ هذا الأفق الذي عاش البحتري في ظلاله إنما هو الأفق الإنساني ، فلم تخلق الطبيعة إلا لتبعد بالإنسان عن متاعب الحياة ومضاجرها ، وإذا بعد الإنسان عن هذه المتاعب والمضاجر صفا عقله ، ونقيت روحه ، ونبل ضميره ، وسلم وجدانه ، وما أشدّ حاجة البشرية في عصر مثل العصر الذى نعيش فيه ، في عصرٍ متربّدٍ ، متلبّدٍ ، الى صفاء العقول ، ونقاوة الأرواح ، ونبل الضمائر ، وسلامة الوجدانات .

لم تشع في شعر البحتري ظلمة الحياة ، وإنما شاع فيه ضياؤها الساطع ، هذا الضياء الذي يبعث النشاط في النفوس ، ويدخل السرور على القلوب ، وينير للعيون مسالكها ، ويهدي العقول إلى مراشدها .

ولم يقتصر البحتري في شعره على إشاعة الضياء والبهجة ، ضياء الطبيعة وبهجتها ، وإنما دخل بنا قصور الخلفاء في عصره ، فنبش روائع الحضارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي نبتت أصولها في تلك القصور ، فألقى على هذه الحضارة رونق الشعر ، فكان لايرى حيطاناً من الزجاج في قصور بني العبّاس الاّ مثّلت له هذه الحيطان لجج البحر وهي تموج على الساحل ، وكان لايرى تفويف الرّخام ، إلا رأى في هذا التفويف حبك الغمام ، وقد رُصفن بين ألوانٍ متفاوتةٍ وأشكال متباينةٍ ، وكان لايرى الذهب الصقيل الذي لبسته السقوف إلاّ رأى نوراً يضيء في الظلام .

ولئن ضحكت الطبيعة والحضارة في هذا الشعر المتلألىء ، لقد ضحك فيه شيء آخر قد يكون أصل البقاء في البشرية وأعني به الحب ، فما فاته من هـذا الحب سرٌّ من أسراره أو لون من ألوانه ، ولا ضاقت عليه مذاهب لغته ، فلسنا نرى في غزله إلاّ ألفاظاً تبرق بريق العيون ، وترفّ رفيف الثغور ، وترقّ رقّة الخصور .

ولقد دفعه ميله الى الطبيعة وابتسامها ، والى الحضارة وروعتها ، وإلى الحب وصفائه ، لقد دفعه هذا كله الى التعلق بالحياة ، فلسنا نرى في ثنايا شعره روح التشاؤم ، روح هذه الحياة المظلمة الكئيبة التي تقعد بالإنسان عن كل همّةٍ ، وتطرحه على هذا التراب المتعقّد ، دون أن يطمح ببصره الى السماء وكواكبها ، فشعره ملآن من الحياة وفرحها ، مترع من الأمل وضيائه ، مزدحم بالفأل ونشاطه ...

ولكن هذا النعيم الذي ذاقه في ظلال الخلفاء من بني العباس لم ينُسه شيئاً أسمى من المادّة ، وإذا كنّا نعيش في عصرٍ اختمرت فيه الوطنية والقومية ، فقد كان البحتري عندليباً من عنادل هذا النغم الرخيم ، كانت له نفس تتبع أوطانها ، وشعره في نزعته الوطنية نضير اللون لأن صاحبه ربيب الحضارة والحدائق والقصور ، لقد فتح عينيه في صباه فرأى مدينة منبج ، فتمتع من طيب هوائها وعذوبة مائها ورقة نسيمها وصحة تربتها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما نشأ وترعرع حتى سرح خياله في أهاضيب لبنان ، وغوطة دمشق ، وبساتين حلب ، وجنّات الساجور ، ونخيل العراق ، فإذا حنّت ركابه الى الشام وهو في العراق ، فقد كانت تحنّ لأنها يشوقها برد الشام وريفه ، ومدافع الساجور ، وتقابل تلاعه وكهوفه على ضفتيه ، فكم هاجه خيال زاره من هذه الأماكن ما يغيب عنه طيفه ، فلست أعلم شاعراً تغنّى بمحاسن وطنه تغنّي البحتري حتى كادت هذه المحاسن تمتزج بشعره ، وتلقي عليه فتنتها وسحرها :

فكم بالجزيرة من روضة تضاحك دجلة ثغبانها
تريك اليواقيت منثورة وقد جلّل النَوْر ظهرانها
غرائب تخطف لحظ العيون إذا جلّت الشمس ألوانها
اذا غرّد الطير فيها ثنت إليك الأغانيّ ألحانها

. . . .

تسير العبارات أيسارها ويعترض القصر أيمانها
وتحمل دجلة حمل الجمو ح حتّى تناطح أركانها
كأن العذارى تمشّى بها اذا هزّت الريح أفنانها

* * * *

وكما شغفه التعلق بوطنه فقد شغفه الولع بقومه والافتخار بمجدهم ، وعلى الرغم من صلته ببعض الأعاجم ، ومن أماديحه فيهم لم يغفل عن مكارم العرب الذين :

ملكوا الأرض قبل أن تملك الأر ض وقادوا في حافتيها الجنودا
وجروا قبل مولد الشيخ إبرا هيم في المكرمات شأواً بعيدا
سائل الدهر مذ عرفناه هل يع رف منّا الاّ الفعال الحميدا
قد لعمري رزناه كهلاً وشيخاً ورأيناه ناشئاً ووليدا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وطوينـــا أيامـــه ولياليـــ ـــه على الكرمات بيضاً وســـودا
لم نزل قطّ مذ ترعرع نكسو ـــه نـــدًى ليّنا وبأساً شديـــدا
نحن أبنـاء يعـرب أعـــرب النا ـــس لساناً وأنضر الناس عـــودا
وكأن الإله قال لنا في الـــ ـــحرب كونوا حجارةً أو حديدا

* * * *

ان شاعراً يجمع شعره هذه المحاسن ، ان شاعراً أتى عليه ما ينيف على ألف سنة ، وكأنه لايزال يعيش بين ظهرانينا ، يفكّر تفكير هذا العصر ، ويشعر شعور هذا الزمن ، وينطق لغة هذه الأيّام ، لغة الحضارة المصقولة ، والعاطفة الرقيقة ، والذوق المصفّى والفكر المضيء ، إن شاعراً هذه خصائصه لجدير بأن يكون قدوة الشعراء في مهابّ من الشعر ضلّ فيها من ضلّ وغوى فيها من غوى .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net